تعليق على :

مقدمة حول طب العيون العربي « الكحالة »

للدكتور نشأت الحمارنه

د. سلمان قطايه

وقعت بالمصادفة على العدد ١٧ من مجلة « التراث العربي » التي كان لي شرف دعم فكرة اصدارها عن اتحاد الكتاب ، وأنا أحد أعضائه ، وشرف نشر بضع دراسات متواضعة فيها . وفي هذا العدد قرأت الدراسة القيمة حول « الكحالة » التي نشرها الزميل الصديق السيد الأستاذ الدكتور نشأت حمارنة . فوجدت أنه يطرح على بساط البحث والمناقشة بعض المشكلات المتعلقة بموضوع « الطب العربي » ، فوددت أن أدلي بدلوي في المشكلة وأعرض خلاصة تجربتي ومعلوماتي في الموضوع ، مع الاعتراف بأنها متواضعة جداً اذا ما قورنت بما فعله الأجداد ، بل حتى بعض المستشرقين أمثال لوكلير وهيرشبرغ ومايرهوف وغيرهم .

يثير الأخ حمارنة المشكلة التي يقع فيها معظم الزملاء « الذين يحلو لهم أن يكتبوا المقالات عن دور العرب في تقدم الطب لايعرفون المراجع اللازمة » ! . وهذا صحيح كل الصحة ، ولكن المراجع هذه أندر من الندرة والحصول عليها مجهد مكلف باهظ . وأنا أوافق أخي نشأة على هذه الفكرة الا انني أخالفه عندما يقول « ولحسن الحظ فان كثيراً من هذه الكتب قد طبع » ! . فأود أن أسأله :

هل طبع كتاب « المهذب في الكحل المجرب » لابن النفيس ؟

أو كتاب « نور العيون » للحموي .

أو « الكافي في الكحل » للحلبي

أو « المنتخب في أمراض العين » للموصلي ؟ ! ... وهي أمهات الكتب الطبية العربية في الكحالة .

المطبوع هو كتاب حنين بن اسحق «العشر مقالات في الكحل » وهو البداية ، وليس فيه من الابداع الا القليل !

وحتى « الحاوي » فهل يعتقد أخي نشأةأن طباعته جيدة ، ومتوافرة وسهلة المنال ؟ وأقصد طبعة حيدر آباد في الهند ·

ثم يعطف كاتب المقال على دور الأطباءالعرب وتقصيرهم في هذا المجال ! ويقول«ولعل المستقبل يأتي ببعض المهتمين العرب الذين **يتطوعون** لحمل هذه الرسالة القومية » ! ؟

ولماذا الانتظار يا رفيق ؟ ! بامكاني أنأقدم لك قائمة جيدة بمن هو على استعداد للتفرغ لهذا العمل ؟ أولهم : أنا نفسي ·ولكنأين من يتكفل بشروط معقولة للعمل في هذا المضمار على غرار معهد « الويلكم » في لندنمثلا ؟ !

كنت في جامعة حلبمسؤولا عن التدريس، والتدريب ، واجراء العمليات ، وتأليف الكتب، والقاء المحاضرات ··· وتحقيقالكتبوالمخطوطات ! كل ذلك لقاء مرتب هزيللايغني ولا يسمن من جوع ·

وها هو الأستاذ العالم القدير الدكتورمحمد زهير البابا يقول لي في آخر رسالة انه تركالتحقيق اذ«لاتقديرمعنوي أو ماديله»؟!أرجوك أخي نشأة ، وأنت أدرى الناس بهذا الجرح ، أن تكف عن اطلاق الصراخ ، واتهامالمثقفين وعلماء بلادنا ، فالذنب ليس ذنبهم · ولا تفعل ما فعله آخرون راحوا يلقون تبعةهزيمة ١٩٦٧ على عاتق المثقفين ·

ثم ينتقل الاستاذ الدكتور الى مشكلةهيثالثة الأثافي ألا وهي تسمية هذا التراث الطبي ·

ولا حاجة لي للاطالة اذ أعتقد أن الطبالاسلامي : هو ما جاء في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والسنة المكرمة منتعاليمطبية · أي انهفرع من العلوم الاسلاميةكالفقه والشرع وغيرهما ·

أما الطب العربي : فهو كل ما كتب باللغة العربية بغض النظر عن أصل المؤلف ودينه وجنسيته ·

وهكذا : فما يسمى بالطب اليهودي العربي لا وجود له · وهو من ابتكار الصهاينة وذلك لخلق تراث طبي لهم ، فأخذوا ما كتبهالأطباء اليهود العرب وجعلوا منه طباً لوحده·

ولا وجود لما يسمى بالعلم المسيحي العربي الذي ينادي به البعض حالياً ، وما ذلك الا اسقاط للمشكلات الطائفية على العلم ·

وهكذا : في الصين قرابة عشرة ملايينمسلم أو أكثر ، فاذا كتب طبيب مسلم صيني بالصينية بحثاً عن التشريح مثلا فلا علاقة لنا به ·

أما اذا كتب عن «فوائد الصيام الصحية» كانت لنا به علاقة كبرى فترجمناه وأدخلناه ضمن « الطب الاسلامي » .

وأعتقد أن هذه التسميات تحل مشكلات كبيرة الى حد ما . رغم الاعتراف بأن الطب ممارسة قبل كل شيء وليس « أدباً » أي كتباً . لذا : نجد في التاريخ أطباء أثروا في الطب بممارستهم وليس بكتبهم ، بل انهم ربما لم يكتبوا قط ، أو كتبوا الضحل البسيط (أمثال عائلة يختيشوع) .

والجدير بالذكر أن الباكستانيين والهنود والصينيين لا يسمون هذا التراث لا بالاسلامي ولا بالعربي بل باليوناني . واذا تكرموا : أسموه اليوناني العربي ! ومنذ أن بدأت بعض الدول البترولية تغدق عليهم الملايين من الدولارات تفضلوا فأسموه بالاسلامي ، وراحوا يطالبون بكتابته بالانجليزية ! .

والواقع أنه لا يمكن الخلاص من العنعنات الطائفية ، والمشادات القومية الا بالاعتراف بأنه (أي الطب) مكتوب بلغة القرآن ولغة الرسول العربي الكريم .

فابن سينا : ايراني ، أو أفغاني ، أوتركي .. لا يهمني أنا هذا بل يهمني « القانون » ، فهو مكتوب بالعربية ، لغتي ، اذن : فهو جزء من تراثي ، أنا القادر على قراءته وتفهمه وليس الايراني أو الأفغاني أو الصيني المسلم ! .

ولقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : « إنّا أنزلناه قرآناً عربياً » . ألم يكن باستطاعته عز وجل أن ينزله بالانجليزية أوالتركية ! بلى ، ولكنه تعالى فضل العربية تقديراً واحتراماً .. فما بالنا نحن اليوم لا نحترمها ولا نقدرها ! ؟ هذا جوابي للتركي والباكستاني والهندي .. وغيرهم من المسلمين .

أما قول الأستاذ حمارنة انه لا توجد كتب عن الطب العربي لكتاب عرب فهو اجحاف بهؤلاء الكتاب . فلديهم الكثير من الكتب الجاهزة للطبع ولكن أين دور النشر التي تحترم هؤلاء العلماء ؟ ! لا وجود لها ! بكل أسف .

يجب على العالم العربي أن يضحي بوقته ، وماله ، وجهده ، بل حتى بكرامته حتى يظهر الكتاب في حلة قد لا ترضيه .

أكتفي أن أقول لك : ان لدي كتاباً عن تاريخ الطب العربي بالعربية والفرنسية ، ولدي تحقيق كتاب شرح التشريح لابن النفيس ولدي دراسة مذهلة عن ابن سينا .. أين الناشر ؟ ولا أقصد أي ناشر فهؤلاء في بيروت كثيرون . ولكن قل بينهم من يحترم العالم معنوياً ومادياً ... وأقصد بالعالم المؤلف القديم والجديد .

أخي نشأة .. لماذا لا تطرح هذا السؤال على نفسك ؟ أنت عالم مرموق ومعروف ، وأستاذ تاريخ الطب بجامعة دمشق ؟ فكم كتاباً أصدر لك حتى الآن ؟ ولا واحد . فلماذا ؟ .

وصديقتنا وزميلتنا الدكتورة غادة الكرمي ، التي تعد بحق من أفضل المؤرخين في الطب العربي ·· كم كتاباً صدر لها ؟ ولا واحد · فلماذا ؟ ·

ما عليك الا أن تقارن : عشرات الكتب التي تصدر كل يوم في مواضيع ومشكلات تكاد تكون تافهة وتصرف عليها الآلاف المؤلفة من الدولارات البترولية وغير البترولية ·

تأمل الجوائز الممنوحة للبحوث في ميدان تاريخ الطب العربي ··· ما هي مواضيعها ؟ ما هي نتائجها ؟ ·

أما قضية أزمنة الطب العربي فأعتقد انه يبدأ من أول ترجمة أيام خالد بن يزيد وينتهي بصالح بن سلوم الحلبي ·· أي حوالي ثمانية قرون · وليس كما يريده بعض المستشرقين قرناً واحداً فقط هو القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) ·

ويؤكد الأستاذ الدكتور نشأة على فكرة حقيقية وهي « ان الاسلام أكد المساواة بين الأمم ، وان جميع الشعوب وجدت في الدولة الاسلامية حظاً متساوياً من الحقوق والواجبات، وان المذاهب الدينية تمتعت في ظل الاسلام بقدر عال من الحرية ، وعاشت في جو من الاحترام المتبادل » ·

وأعتقد أن العرب بهذا قد سبقوا الغرب بقرون كثيرة ، وكانوا أفضل منهم بكثير أيضاً· بل كانوا أفضل من أمريكا لأن أمريكا بنيت على جماجم حوالي عشرة ملايين زنجي ،وبابادة عرق بأكمله (هم الهنود الحمر) وهذا ما لم يفعله العرب المسلمون لأن « التاريخ لم يعرف فاتحاً أرحم من العرب » كما قال جوستاف لوبون بل جاؤوا بأفكار ضد العرقية ، وأكبر مثال: سفر عمر بن الخطاب (رض) الى القدس مع عبده، وتقاسمه الطريق على الناقة مناصفة، حتى جاء دور العبد فدخل القدس وهو على الناقة والخليفة يجرها بيده أمام سكان القدس المذهولين ·

لم أقرأ في حياتي رغم ثقافتي الغربية ملكاً أو أميراً غربياً فعل ذلك رغم التشدق بالأخلاق الدينية والعدالة والأخوة والمساواة·

أما رتبة الحكيم التي أطلقت على كبار الأطباء العرب فهي ذات معنى عظيم جداً ، مطروح حالياً ·

فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى :« يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً عظيماً » ·

والحكيم : هو العالم الفيلسوف · ليس الفيلسوف المتشبع بالفلسفة الوثنية كما كان يريد جالينوس، بل بالفلسفة الدينية (المسيحية كحنين بن اسحق وموقفه من المتوكل في رفضه وصف السم ، واليهودية القديمة الحقيقية كمواقف موسى بن عبيدالله بن ميمون)وخاصة الاسلامية · وهكذا فقد كان الحكيم يجمع العلم والأخلاق في آن واحد ، وهي الأخلاق المثالية

الدينية ، وهو الشيء الذي كان يحميه مـــن الوقوع في الأخطاء الفاحشة لا كما كان يفعل ابن آثال فيصف السم لأعداء معاوية بن أبي سفيان ·· أو ما أصبح عليه العلماء الغربيون اليوم : فهم « تقنيون » يبتكرون آلات الدمار ويتنصلون من آثارها الراعبة على البشرية بحجة أنهم علماء ! ·

ان الهوة بين أخلاق العالم الغربي وعلمه رهيبة ومخيفة على مستقبل الانسانية جمعاء· ولا أظن أن من أمر بالقاء قنبلة هيروشيما ، سيتردد في الضغط على الزر لاطلاق الصواريخ·

وهكذا كان على الحكيم أن يكون « ولياً » من أولياء الله الصالحين على ما قاله علي بن رضوان في كتابه « شرف الطب » ·

لأن الحكيم ، أي الطبيب الفيلسوف ، أستاذ ، أي « قدوة » ويجب على القدوة أن تتمتع بالعلم والأخلاق ·· ولقد فضلت الأخلاق على العلم ··

أما قضية ترجمة المصطلحات الطبية ، فأعترف بتواضع أن أجدادنا كانوا أبرع منـا وأمهـــر ·

فمن يقرأ كتاباً صعباً مثل كتاب « علم منافع الأعضاء » لجالينوس ترجمـة حنين بن اسحق ، مثلا · يخيل اليه أن المؤلف هو حنين وليس جالينوس · بسبب سلاسة الاسلوب ، وحسن انتقاء المصطلحات ·

ولسبب اهمال التراث من قبل معظم المترجمين ، واعتمادهم على الترجمات الحرفيـة وقعوا في أخطاء ·· مضحكة مبكية ، يحاول المترجمون المعاصرون لحسن الحظ ، الخلاص منها ، ولقد وفقوا في معظم الأحيان ·

أضرب بعض الأمثلة :

ترجم المصطلح التالي : Artere Interdicitale

كما يلي : شريان ما بين السلاميات ·

أي : ترجمة حرفية · واذا رجعنا الى الكتب الطبية الفرنسية القديمة وجدناه تحت اسم : Artere Salvatelle واذا بحثنا عـــن مصدر هذا المصطلح وجدناه الترجمـة الحرفيـــة للمصطلح العربي الوارد في معظم الكتب العربية القديمة وهو :

الشريان أسَيلِم (الأسيلم عرق بين الخنصر والبنصـر لـم يأت الا مصغراً · فترجمـه الفرنسيون القدامى ترجمة حرفية · وأعتقد أنه من المفضل ، طبعـاً ، العودة الى الأصـل العربي ·

مثـل آخر :

Adénoïdisme ترجمه البعض : داء الناميات شبه الغدية ·

أي : ترجمة حرفية مؤلفه من أربعة كلمات ·

وأفضل الترجمة المعاصرة : غُدانيّة ٠

مثل آخر : Arythmie

تُرجم : اضطراب النظم القلبية ٠

وحديثاً : اللانظمية

ويقع البعض في أخطاء أخرى سببها عدم معرفة المعنى المقصود والمدلول في المصطلح مثلا :
Para-Acousie
تُرجم نظير السمع ولكن المقصود هو أن المريض المصاب بالصمم يسمع في الضجّة
فالأفضل في رأيي هو : السمع الشاذ ٠

رغم ان كل كلمة شاذ قد كرست لترجمة : Anormalie والواقع أن السمع هنا شاذ غير طبيعي ٠

هذا ما بدا لي أن أعلقه على بحث الزميل ٠ معترفاً ، كما كان يقوله القدماء ، بتقصيري ، وعجزي عن الاحاطة بكامل الموضوع ، بل راجياً من كل الزملاء المعنيين المشاركة في المناقشة ، فربما ظهرت بعض جوانب الحقيقة ٠ لأن هذه مثل الفيل في قصة الفيل والعميان الثلاثة التي ذكرها ابن المقفع في كليلة ودمنة ٠

د٠ سلمان قطاية
باريس

★ ★ ★